5 المسلمون والغزو الأوروبي لدولة رابح فضل الله

يعد رابح فضل الله من الزعماء المسلمين الذين لعبوا دورا هاما في نشر الحضارة الإسلامية في وسط أفريقيا وغربها بالإضافة إلى مقاومة الاستعمار الأوروبي في مرحلة التكالب على القارة، فلقد استطاع رابح فضل الله بقوة إيمانه أن يفرض السكينة والأمان على جزء كبير من بحيرة تشاد، وأن يؤسس مملكة واسعة، وأن ينشر الدين الإسلامي وشريعته الغراء في ذلك الجزء من أفريقيا، وأن يقف أمام التوسع الأوروبي، وخصوصا الفرنسي، في تلك المنطقة حتى سقوط دولته بعد سبع سنوات من النضال المستمر، والكفاح المتواصل ضد القبائل الوثنية تارة، وضد الممالك المحلية تارة أخرى. وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش فترة أطول لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبي وابتلاع المنطقة بأسرها. ويكفي هذا المجاهد المسلم فخرا أنه قاوم الفرنسيين وأعوانهم من الحكام الوطنيين الذين تآمروا عليه، واستطاع أن ينتقل من سودان وادي النيل إلى وسط القارة وغربها حيث كان مقره حول بحيرة تشاد التي صارت مقرا

لدولته الإسلامية التي لم تعمر طويلا، ولكن قبل الحديث عن سيرة هذا البطل المسلم يجدر بنا أن نلقي نظرة على أحوال المنطقة قبل أن يؤسس رابح دولته [1].

في أوائل القرن التاسع عشر كانت منطقة بحيرة تشاد تحت سيطرة دولة البرنو، لكنها كانت تزداد ضعفا يوما بعد يوم خصوصا بعد نجاح جهاد الشيخ عثمان وتأسيس إمبراطورية الفولاني الإسلامية، ودخوله في صراع مع دولة البرنو، والانتصار عليهم في أكثر من معركة [1].

وبعد أن هاجم الفولانيون برنو اضطر الماي أحمد بن علي (1791- 1808) إلى الهروب من عاصمته إلى منطقة موبر (Mobber)، وعندما وصل الماي إلى مدينة ميج (Mege) التقى الشيخ محمد الأمين الكانيمي، فطلب منه المساعدة، لكن الفولانيين بزعامة القائد جوني مختار واصلوا زحفهم الكاسح نحو عاصمة برنو، واستولوا عليها في مارس 1808، وهربت الأسرة الماغومية من العاصمة، واتجهت شمالا حيث مات الماي أحمد، وقام ابنه دونمه بجمع الرجال وتكوين الجيوش بمساعدة الشيخ الكانيمي. ونجح هذا الماي في العودة إلى عاصمته، وهزم الفولانيين، وقتل قائدهم جوني مختار في عام 1811.

وترتب على ذلك أن دخل الشيخ الكانيمي في مفاوضات مع الفولانيين، وتم تبادل الرسائل في هذا المجال، لكنها لم تسفر عن نتيجة لأن الفولانيين أصروا على الانتقام بقيادة المعلم إبراهيم زكي الذي هاجم عاصمة برنو، وأجبر الماي على الهرب منها، وبناء على نصيحة الشيخ الكانيمي قرر الماي بناء عاصمة جديدة في مدينة بيرنن كابلا (Birnin Kabela) بالقرب من نجورنو مقر إقامة الشيخ الكانيمي [2].

وأدّت هذه الأحداث بالطبع إلى قوة الشيخ الكانيمي حيث صار الحاكم الفعلي في إمبراطورية البرنو، وظل يسيطر على مقاليد أمورها حتى وفاته عام 1835 وصار المايات ألعوبة في يده، يعزل منهم من يشاء، ويعين من يشاء، وبيده كل مقاليد السلطة والجاه. واتخذ الكانيمي من مدينة كوكا (Kuka) عاصمة له، ورأى الكانيمي أنه من الأفضل التفاهم مع الفولاني، فبعث برسالة إلى الخليفة محمد بلو أمير المؤمنين في دولة سوكوتو ترتب عليها الدخول في مفاوضات انتهت بتسوية المشكلات بين دولة البرنو

وإمبراطورية الفولاني [1].

ولما مات الشيخ الكانيمي في عام 1835 خلفه ابنه الشيخ عمر الذي حاول تحسين العلاقات مع دولة الفولاني. وفي عهد الشيخ هاشم (1885-1893) هاجم رابح فضل الله دولة البرنو، وعبر إلى نهر شارى عام 1892، وفي فترة وجيزة بسط نفوذه على كل المنطقة، وبدأ يدخل في صراع مع الحكام الوطنيين والأوروبيين.

أولا: نشأة رابح فضل الله

ولد رابح فضل الله في عام 1846 في إحدى القرى في بحر الغزال، وكان ابنا لأحد ملوك القبائل التي استوطنت حوض بحر الغزال، ونشأ على التربية العسكرية الخالصة حيث شارك أباه في المعارك التي كان يخوضها ضد القبائل المجاورة.

كان والده قد انضم إلى السلك العسكري المصري، وشارك في كثير من المعارك أيام الخديوي إسماعيل، لكنه أصيب في إحدى المعارك الحربية في يده اليمنى، فأبعد عن الجيش المصري واضطر إلى العودة لبلاده عندما علم بوفاة والده قبل أن يغادر القاهرة [2].

عندما مات فضل الله والد رابح، صار رابح وحيدا، ولما لمع نجم الزبير باشا رحمت، وتجمع حوله الأنصار والأعوان، انضم رابح إليه، فصار من أعوانه وارتبط اسمه به حتى نهايته. وكان رابح الزبير طويل القامة، كبير الهامة، واسع الحيلة، معقوف الأنف، خفيف اللحية، قصير الشاربين، أسود اللون، وكان يجمع بين وقار الكهول ورشاقة الشبان [1].

وشاءت الأقدار أن تظهر شجاعة رابح وقدراته الحربية أثناء صراع الزبير باشا مع حملة البلالي، تلك الحملة التي أرسلتها حكومة مصر لاحتلال بعض المناطق في بحر الغزال، واستغلال مناجم النحاس فيها لحساب الحكومة المصرية، واضطرت هذه القوة إلى الالتحام مع قوات الزبير باشا صاحب السلطة الحقيقية في هذه المنطقة، ورفع الزبير باشا رابحا إلى رتبة جندي بسبب نشاطه الواضح، وبعد ذلك رقاه إلى رتبة ضابط فشارك في كل المعارك التي خاضها الزبير باشا في الفترة من عام 1871 حتى عام 1874، وانضم رابح إلى الزبير في حربه ضد البلالي

.(Belali)[2]

بدأ البلالي يستخدم أسلوب تحريض القبائل على الزبير باشا الذي اضطر إلى الدخول في حرب معه، ووجد الزبير أن الفرصة قد حانت لكي يجرب قائد جيشه الجديد رابح الزبير، واستطاع رابح أن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالي بمفرده [3].

وتقابل جيش رابح مع جيش البلالي عند «ديم جيجو» بالقرب من دار موفيو، ودارت معركة بينهما في أبريل عام 1871، وانتهت المعركة بهزيمة البلالي، والقضاء عليه نهائيا، وعاد رابح بعد أن حقق هذا النصر إلى مقره في ديم الزبير حيث أجبرت حكومة مصر على الاعتراف بوضع المنطقة تحت حكم الزبير باشا.

لقد استفاد رابح كثيرا من انضمامه إلى الزبير باشا حيث كانت تلك الفترة بمثابة المدرسة الحقيقية لصقل مواهبه، والميدان الحقيقي لاكتساب الخبرات الأساسية في الحروب، وقد ظهرت قدراته التي ستجعل منه القائد الذي سيلعب دورا كبيرا في ممالك غرب أفريقيا في كل من البرنو ووداي وعلى شواطئ بحيرة تشاد. فلقد فاق رابح كل الرجال الذين خدموا الزبير باشا، وكانت مواهبه الحربية هي التي دفعت بالزبير باشا إلى تسليمه القيادة العليا لجيشه [1].

لكن الأمور لم تستقر للزبير باشا أو لقائده رابح طويلا، حيث بدأ حاكم السودان ويدعى إسماعيل أيوب يخطط لمؤامرة ضدهما، ذلك لأن الزبير باشا صار ذائع الصيت، الأمر الذي جعل الحكومة المصرية تستدعيه إلى القاهرة، ورغم معارضة رابح لهذا الأمر إلا أن الزبير باشا رحل إلى القاهرة. وبرحيله إلى القاهرة عام 1874 واصل رابح العمل في خدمة سليمان الزبير الذي كان غوردون قد ترك له حكم مديرية بحر الغزال بعد رحيل والده الزبير باشا إلى القاهرة [2].

وما أن بدأ حكم سليمان الزبير حتى غدت المنطقة تدخل في صراعات جديدة، ووجد سليمان الزبير مؤامرات ضده من غوردون الذي صار حاكم السودان بعد إسماعيل أيوب [3].

وبعد استسلام سليمان الزبير لجيسي في 14 يوليه 1879 قام بقتله غدرا، وحاول قائد القوات المصرية في السودان أن يوقع ببقايا جيش الزبير

باشا في فخ بقصد القضاء عليه، لكن رابحا هرب من هذه المصيدة مع مجموعة من الزنوج المخلصين وشق طريقه، وبنى جيشه النظامي وجهزه بأحدث الأسلحة الحربية التي حصل عليها من تجار الرقيق، ومن الأوروبيين ومن زعماء القبائل المجاورة [1].

تقدم رابح مع مجموعة من هؤلاء الزنوج إلى دارسولا وهي إحدى المناطق المستقرة والمستقلة بين دارفور ووادي، ثم استقر في دار رونجا (Runga) على نهر أكوديبي (Aukudebee)، وعندئذ كتب إلى يوسف سلطان وادي يعرض عليه حمايته، لكن يوسف رفض العرض، وأرسل قوة ضد رابح، لكن انهزمت هذه القوة.

وفي أوائل عام 1884 دعا السيد محمد أحمد المهدي في السودان رابح الزبير للاعتراف بسلطته، لكن رابحا لم يرد على خطاب المهدي، وتوسع رابح حتى ضم دار رونجا في الجنوب الغربي من دارفور[2].

وفي عام 1887 قام الخليفة عبد الله التعايشي خليفة المهدي بالاتصال برابح عن طريق ابن عمه عثمان آدم، ولكن دون أن يحقق أي نتيجة [2]. وفي العام التالي أرسلت فرنسا بعثة بقيادة بول كرامبل إلى أفريقيا الوسطى، ونجح في اكتشاف الجزء الشمالي للكونغو الفرنسي. ولما أصيب بالحمى عاد إلى فرنسا، لكنه عاد ثانية عام 1890 لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد. والتقت قوات كرامبل رابح فضل الله بالقرب من بلدة كوتي. ورغم أن المصادر لم تذكر شيئا عن حدوث اشتباكات بين قوات كرامبل ورابح إلا أن مقتل كرامبل ظل سرا غامضا.

ويرى مؤرخ آخر أن رابحا قد أخذ حوالي 300 مسدس من حملة كرامبل، كما بلغت معدات رابح بعد مقتل كرامبل حوالي 150 مسدسا بالإضافة إلى 370 مسدسا من نوع آخر، وأيضا 2500 بندقية مع عدد كبير من السيوف[1].

ومهما اختلفت الآراء حول مصرع كرامبل فإنه من المؤكد أن هذا الرجل قد لقي مصرعه على أيدي المسلمين، وأن رابحا قد استفاد كثيرا من مصرعه حيث ساعدت الأسلحة التي حصل عليها من كرامبل على تقوية جيشه، وشجعته على إقامة قواعد إمبراطوريته، وأدرك أنه إذا لم يوحد القبائل المتفرقة في حوض نهر شاري وفي ضفاف بحيرة تشاد فإنه لن يستطيع السيطرة على هذه المناطق، أو الوقوف في وجه التوسع الفرنسي.

ثانيا: رابح والقوى المحلية

بعد أن أتم رابح استعداداته قرر تأديب مملكة واداي التي تحالفت ضده، وقد أرسل سلطان واداي حملة ضد رابح من حوالي عشرين ألف رجل لإنقاذ دولة باجرمي المجاورة لها من هجوم رابح، لكن هذه القوة اضطرت إلى التراجع أمام جيش رابح الذي لم يكن يقل عن سبعين ألف مقاتل من الرجال الأقوياء [2].

لم يحاول رابح إضعاف قوته في حروب طويلة مع مملكة واداي، فرفع الحصار واتجه نحو الغرب حتى وصل إلى نهر شاري، وتمكن من القضاء على القبائل الوثنية هناك مثل: قبائل الملتوس (Miltous)، والبواس (Bouas)، والساراس (Saras)، والاليتونز (Alitons). واستطاع رابح أن ينشر الدين الإسلامي بين سكان هذه القبائل، وواصل رابح تنظيم شؤون القبائل على ضفاف نهر شاري حتى عام 1893 [1].

تحرك رابح شمالا لإتمام هدفه الكبير في دولة باجرمى الإسلامية التي تقع في وسط أفريقيا، واضطر رابح إلى الهجوم عليها ليفتح الطريق إلى ما وراء نهر شارى غربا، فهاجم مدينة مانهافا الواقعة في حدود هذه الدولة واستولى عليها، وفضل أميرها أن يستسلم للفرنسيين في عام 1894 وعقد معاهدة معهم. وفي عام 1897 زار الكولونيل إميل جنتيل باجرمى حيث استقبله السلطان جورانج استقبالا حسنا في عاصمته ماسينا، وعقد معه معاهدة صداقة وتحالف ضد رابح [2].

وما أن عرف رابح بذلك التحالف بين الفرنسيين وباجرمى حتى هاجم سلطانها جورانج واستولى على كل دولته، وتوالت انتصاراته وتوسعاته في المنطقة. وكانت الآمال تراوده في غزو إمبراطورية البرنو، وقرر البدء بهذه العملية في ديسمبر عام 1893، وأخذ سلطانها على غرة من دون أن يستعد لهذا الهجوم المفاجئ، واضطر السلطان هاشم إلى ترك أنجورون (Angoron) وكوكا العاصمة، وهرب عبر النهر إلى زندر [3].

وكانت برنو تعاني حربا أهلية وانقسامات داخلية، حيث إنه بعد موت السلطان إبراهيم تنافس على العرش كل من محمد زاهر، والشيخ هاشم، وكلاهما ابن لأخوين يتناوب الحكم على دولة برنو، وقد تم اختيار الشيخ هاشم سلطانا، لكن حدثت فترة اضطرابات وقلاقل حول مسألة وراثة

العرش، وازداد عدد اتباع محمد زاهر لكنه عجز عن تولي عرش البلاد دون مساعدات من الخارج، لذا فقد لجأ إلى عون رابح فضل الله الذي لبى النداء، واعتبرها فرصة لا تعوض. فسار بجيشه نحو العاصمة كوكا (Kuka) واستولى عليها. وبدلا من أن يعين محمد زاهر سلطانا حسب الاتفاق بينهما، فإن رابح فضل الله تصرف بشكل فردي كأنه سلطان برنو. فاضطر محمد زاهر إلى اللجوء لابن عمه هاشم في محاولة لتسوية الأمور بينهما، وعلى أساس تقسيم الدولة بينهما. وبعد أن وافق الشيخ هاشم على مقترحات محمد زاهر، قام بمقاومة رابح الزبير، واضطر رابح إلى الجلاء عن كوكا. وسرت إشاعات عن أن رابحا قد قتل ولكن لا صحة لهذه المعلومات التي وصلت إلى جوستن الفاريز في طرابلس (1).

وقد أحدثت هذه الاضطرابات شللا كاملا في تجارة برنو، وتفيد المخابرات البريطانية أن رسولا خاصا قد وصل إلى الجنوب يحمل رسالة من سلطان وادای إلى الشيخ السنوسي يعرب فيها عن القلق الشديد بسبب نجاح هجوم رابح، ويطلب النصح والإرشاد من المهدى السنوسي (2).

ويقال إن المهدى السنوسي قد شجع سلطان وادای، لكن نصحه بعدم مهاجمة قوات رابح، وأن عليه الوقوف موقف المدافع. وأن يكون حذرا لأي تطورات قد تحدث. واستمرت سلسلة المراسلات بين سلطان وادای والمهدي السنوسي فيما بعد.

وكان الشيخ هاشم يرغب في تجنب القتال مع رابح، لكن ابن أخته ويدعى كيارى قتل خاله وتولى الحكم بدلا منه، وقاد رجاله وسار بهم لمواجهة رابح، والتقت قوات كيارى مع جيش رابح بالقرب من مدينة كوكا العاصمة عام 1894 وذلك بقصد التنكيل برابح وجيشه (1).

ودارت معركة عنيفة استمرت يوما كاملا حقق فيها كيارى نصرا على رابح واستولى على معسكره، وارتكب أفظع الأعمال الوحشية ضد رجال رابح، وفي تلك المعركة جرح فضل الله بن رابح جرحا خطيرا، لكن رابحا لم يستسلم، وأعاد توزيع الذخيرة على القوات، وفي الصباح هاجم معسكر برنو من جديد. وعجزت قوات برنو عن الصمود طويلا أمام تلك المفاجأة من جانب قوات رابح التي أصرت على الثأر بأي ثمن، وهرب الجنود، وفضل كيارى الاستسلام لرابح الذي أمر بتنفيذ حكم الإعدام فيه جزاء لما

اقترفه من قتل النساء والأطفال والشيوخ. وواصل رابح المسيرة إلى كوكا العاصمة حيث وجدها خاوية على عروشها، فبدأ بتعميرها من جديد بعد أن أخضع بقية أطراف مملكة برنو لسلطانه [2].

وبعد فترة وجيزة انسحب رابح من كوكا، واستقر في مدينة دكوة التي تبعد قليلا إلى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد، والتي تمتاز بموقع حصين من كوكا، وفي هذه المدينة بدأ رابح يرسى دعائم دولته من هذه العاصمة، فأدخل ضريبة الرأس بمقدار دولار على الفرد باعتبار أن هذه هي أبسط وسيلة لزيادة مصادر الدخل، وبذل ما في وسعه لتشجيع الطرق التجارية، وطرق القوافل مع طرابلس [3].

ودانت له كل بلاد برنو، وتوسعت إمبراطوريته لدرجة أنه فكر في غزو إمبراطورية الفولاني في سوكوتو حيث تشير التقارير إلى أن رابحا جمع جيشه في بورساري (Borsari) ما بين كوكا وكانو، واستعد لغزو سوكوتو لكنه أحجم عن هذه الفكرة بسبب نقص الإمدادات اللازمة لمثل هذا الغزو. وهناك شك في هذه التقارير لأن السيد والاس وكيل شركة النيجر الملكية أشار إلى أن العلاقات بين رابح والخليفة في سوكوتو كانت ودية للغاية عندما زار سوكوتو في عام 1894 [1].

لكن يبدو أن علاقات رابح بدولة سوكوتو قد توترت بعد عام 1896، حيث تشير التقارير إلى أن الخليفة في سوكوتو قد منع التجارة مع برنو. كما أن رابحا أرسل ابنه فضل الله للإغارة على دار زندر إحدى أحياء برنو الواقعة شمال سوكوتو، لكن نجاح هذه الحملة كان محدودا.

وفي أغسطس 1898 تقدم رابح بقوة من أربعين رجلا نحو دولة سوكوتو، وصار على بعد مسيرة ثلاثة أيام من مدينة كانو، لكنه لم يواصل المسيرة بسبب قدوم حملة فرنسية بقيادة إميل جنتيل فاضطر للانسحاب [2].

ثالثا: تكوين إمبراطورية رابح:

بعد أن أخضع رابح برنو، بدأ تنظيم الإدارة والحكم فيها، ونشر الحضارة بين ربوعها حيث قسم البلاد إلى مقاطعات جعل على كل منها حاكما من أعوانه المقربين إليه، وكان رابح يمثل السلطة العليا التي تصدر الأوامر والقوانين. وبلغت إمبراطورية رابح حوالي مائة وخمسين ألف كيلو متر

مربع، وتضم أكثر من خمسة ملايين نسمة [3].



شكل رقم (12)

واستقر رابح في بلاد برنو، ونقل عاصمته من كوكا إلى مدينة دكوة التي صارت عاصمة له مدة سبع سنوات، واتخذ من الدين الإسلامي وشريعته الغراء أساسا للحكم في الإمبراطورية، وصار القرآن دستور هذه الدولة، وأخذ الناس يزدادون تمسكا به، فاستتب الأمن، واستقرت الأمور، وأحبه البررنيون، وتنازلوا عن كثير من المناطق له [1].

واتسم نظامه باللامركزية، وظل يحمل لقب أمير الذي أطلق عليه منذ عام 1880، وأعطى رؤساء الألوية والوكلاء والنبلاء سلطة إدارية على أن يحاسب كل واحد منهم أمام مجلس استشاري تحت رئاسته شخصيا [2].

أما الناحية القضائية في دولة رابح فقد كانت مدنية يتولاها الفقهاء الذين يعينهم رؤساء المقاطعات، ويرتكز القضاء على الشريعة الإسلامية، ولم يتدخل رابح قي شؤون القضاء إلا في حالات استثناء نادرة [3].

أما بيت المال في دولة رابح فكان يحصل على موارده من الغنائم والغرامات والزكاة، والأموال التي تصادرها الدولة من الأفراد، واعتمد رابح في بعض الأحيان على تجارة الرقيق لسد حاجة الجيش من الأسلحة إلى جانب ضريبة الرأس على سكان المناطق التي دانت لسيطرته.

أما جيش رابح فكان يتكون من مجموعتين كبيرتين: إحداهما في دكوة بقيادة رابح فضل الله نفسه، وعندما غادر رابح بحر الغزال في عام 1879 كان يرافقه ما بين ألف وستة آلاف من الزنوج بما فيهم حوالي ثلاثمائة من حملة البنادق. وارتفع هذا العدد إلى خمسة عشر ألف رجل في عام 1887. وفي عام 1890 وصل هذا الجيش إلى ما بين ستة عشر وسبعة عشر ألف جندي من الزنوج وعرب دارسولا وأولاد راشد والبقارة من التعايشة والقبائل الأخرى [4].

ويشير شاهد عيان في نهاية عام 1891 إلى أن قوة رابح بلغت حوالي عشرين ألفا من المشاة المسلحين بالبنادق، وحوالي خمسة آلاف من الفرسان، ويقول أحد شيوخ طرق القوافل إن جيش رابح الدائم في عام 1896 كان يتكون من أربعين ألف رجل معظمهم من الخرطوم، وإن الجيش يطبق النظام المصري في كل الأمور كما يضم الجيش حوالي خمسة عشر من السنغاليين الذين ينتمون إلى جماعة كرامبل. وقد مات من السنغاليين حوالي تسعة وبقى منهم ستة فقط [1].

ويضم الجيش حوالي تسعا وعشرين فرقة عسكرية يتراوح عدد أفراد كل فرقة ما بين ألف رجل وألف وخمسمائة رجل. وكان الجندي في الجيش يتلقى تدريبا شاقا، وكانت الأسلحة التي يمتلكها رابح عبارة عن بنادق ريمنجتون طراز 1840. وكان الجيش أيضا يضم السيوف والرماح والسهام، والأسلحة النارية [2].

وفي كل يوم جمعة كان رابح يقوم بالتفتيش على قواته، وعند حدوث أي قصور في الاستعدادات يستدعى الضابط المسؤول عن الفرقة ويقوم بجلده[3].

ومن التقارير السابقة لشهود العيان ولرجال المخابرات البريطانية نجد أنه من الصعب تحديد عدد جيش رابح لأن هذا الجيش كان يتغير من معركة لأخرى، وحسب عدد المنضمين لهذا الجيش بعد غزو مناطق جديدة. وإذا كانت التقارير غير دقيقة في عدد القوات فإنه من الصعب تحديد عدد البنادق.. فأحيانا يعطيا شيخ القوافل القادمة من برنو رقما عن عدد البنادق يصل إلى حوالي ألف وخمسمائة بندقية، كما يثير تقرير آخر إلى أن عدد البنادق بلغ خمسة آلاف بندقية. وكان رابح مضطرا إلى التوقف عن حملاته بسبب الحاجة الشديدة إلى الأسلحة. وفي إحدى المرات اشترى ألف جمل محملة بالبارود من سلطان واداى [1].

هذا وقد ورد في تقرير المخابرات البريطانية عن تحركات رابح أن أسلحته بلغت ثمانية آلاف بندقية، وأن الرجال الذين لا يجدون سلاحا كانوا يحاربون بالسيوف والرماح والقسي. وكان الصيادون يشكلون جزءا من الجيش [2].

وانضم إلى جيش رابح قوات الشيخ حيات بن سعيد أحد أحفاد الشيخ عثمان في سوكوتو، والذي علم بقدوم رابح إلى الغرب فترك مدينة أدماوا (Admawa) مع نوابه، وانضم إلى رابح بعد أن علم بتأييده للمهدية [3].

هذا وقد كان رابح يسعى لإيجاد قوة آمنة لتجارته في إمارة ميسو إحدى إمارات دولة سوكوتو بعد التفاوض مع أميرها. وفي عام 1895 ترددت الإشاعات بأن رابحا سوف يهاجم كانو، وهذا ما أثار الرعب في الإمارات الشرقية لدولة الخلافة في سوكوتو، فأصدر الخليفة أمرا بعدم التعامل مع رابح، لكن رابحا هدد أمير كانو إذا رفض التعاون معه [4].

وفي أوائل عام 1897 هاجمت قوات رابح بقيادة الشيخ داب (Dab) دولة سوكوتو، وهرب أمير كانو، وقد أثارت هذه الحادثة رعبا في نفوس الناس وعمت الفوضى إمارات ميسو وكاتاجم وهاديجيا (15).

وكان من الممكن أن يتوسع رابح في إمارات دولة سوكوتو التي وقفت إماراتها الشرقية عاجزة أمام هذا المغامر الجريء، ولم ينقذ هذه الإمارات إلا اتجاه قوات رابح نحو الشرق لمواجهة بعثة فرنسية كانت قد تقدمت نحو برنو من الجنوب، وكان اتجاه فرنسا نحو باجرمى وتوقيع معاهدة مع سلطانها في عام 1897 قد أجبر رابحا على اقتحام باجرمى ومن ثم بداية الصراع مع الفرنسيين [6].

رابعا: رابح والصراع مع القوى الأوروبية

بعد أن أقام رابح دولته على الشريعة الإسلامية الغراء أعلن أنه سوف يشن جهادا إسلاميا ضد المسيحيين، وضد القوى التي تتحالف معهم ضده (1). وحاولت الدول الأوروبية وخصوصا بريطانيا وفرنسا تحسين العلاقات بإمبراطورية رابح، فاستخدمت الدولتان كافة الوسائل لتحسين العلاقات به خشية الدخول في صراع قد لا يكون في صالحهما. وكانت فكرة الدخول في علاقات طيبة معه قد أثارها السير ايفلن بارنج (Evelyn Baring) في يونيه عام 1891 في خطاب إلى اللورد سالسبوري، لكن لم يحرك سالسبوري ساكنا، ولم يحدث تطور في هذا الاتجاه حتى عام 1893. وفي عام 1894 حاولت بريطانيا الاستعانة بسيده القديم الزبير باشا رحمت الذي أرسل في الرابع من أبريل 1896 رسالتين إلى رابح، لكن إحداهما وقعت في أيدي الأتراك في طرابلس، بينما وصلت رسائل أخرى إلى رابح وقام بالرد عليها معلنا استقلاله عن الزبير باشا [2].

وعندما التقى الكولونيل وينجت الزبير باشا في أغسطس عام 1898 أفاد بأنه تسلم رسالة من مراسل في بنى غازي، وكان قد وصل من دكوة، وأفاد بأن رابحا ينكر كل معلوماته عن الزبير، بل إنه حجز ثلاثة من رسل الزبير وأعدمهم، وأصر رابح أن لا علاقة له بالأوروبيين المسيحيين إلا الحرب [3]. وأرسل اللورد لوجارد إلى وزارة المستعمرات في الثامن من فبراير عام 1899 بعض الملاحظات عن تقرير حكومته حول رابح فضل الله

ومنها:

أولا: عدم الالتحام المباشر مع رابح فضل الله، ومحاولة الاستفادة منه، وذلك لأن الحملات الفرنسية والألمانية سوف تلتحم مع قوات رابح على بحيرة تشاد، ومن المحتمل أن يضطر رابح إلى التوجه شرقا، ومن ثم تنقطع اتصالاته بمناطق النفوذ الإنجليزية [1].

ثانيا: وعورة المنطقة، وبعد المسافات، وقلة القوات البريطانية الموجودة في قوة حدود غرب أفريقيا تجعل من الصعب الدخول في صراع مع جيش رابح القوي، والذي يمكن أن يحمل البريطانيين خسائر فادحة، وسوف يضيع المال العام في إرسال قوات كبرى لإصلاح ما يترتب من أخطاء، كما أن شركة النيجر بمواردها المحدودة سوف تتحمل خسائر كثيرة للدفاع عن سمعتها.

ثالثا: إن طرق التجارة القادمة من طرابلس وغيرها من دول البحر المتوسط، ومن شرق النيل والسودان تلتقي عند بحيرة تشاد. وبالتالي يمكن تطوير هذه الطرق لصالح البريطانيين وحجب محاولات الفرنسيين لتمويل التجارة بإقامة تجارة مع رابح فضل الله من العاج ورش النعام والحيوانات وغيرها من المنتجات المحلية.

رابعا: إن مناخ منطقة النيجر مثل كل الأنهار الأفريقية الكبرى يعد بمثابة مقبرة للرجل الأبيض، وبالتالي تصعب المغامرة بإرسال أعداد كبيرة من البريطانيين.

وواضح من توصيات لوجارد وملاحظاته أنه يحاول عدم الاحتكاك برابح فضل الله حتى لا يشتت جهود قواته المحدودة، وأنه يفضل الانتظار حتى يدخل رابح في صراعات مع الدول الأخرى مثل فرنسا، وبالتالي ينتهي نفوذ هذا الرجل، ويستفيد البريطانيون من هذا الصراع دون أن تتحمل الميزانية البريطانية أي تكاليف مادية أو عسكرية في وقت مازالت قوة حدود غرب أفريقيا البريطانية محدودة، وتحتاج إلى دعم كبير لكي تواصل مهمتها بنجاح.

أما من جانب فرنسا فإن الوضع مختلف تماما، ذلك لأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لضم المنطقة والاتجاه شرقا نحو بحيرة تشاد والقضاء على قوة رابح فضل الله، وهو الأمر الذي سيجعل الالتحام ضروريا بعد

فشل المساعي السلمية في عقد اتفاق معه أسوة بالبريطانيين. ففي عام 1896 حاولت الحكومة الفرنسية الحصول على خطابات توصية مماثلة من الزبير باشا رحمت سيد رابح القديم.. وسلمت نسخة من هذه الخطابات إلى السيد إميل جنتيل الذي كلّف بالقيام بحملة إلى برنو عن طريق الكونغو وباجرمى وضهر شارى. كما أرسلت فرنسا نسخة أخرى مع الكابتن ماركوس جبريل جازاماجو (Marcus Gabriel Cazamajou) قائد الحملة الأخرى التي اتجهت لتحديد خط السكك الحديدية بين ساى (Say) وبارو (Barrua) طبقا للاتفاق بين الإنجليز والفرنسيين، وكانت فرنسا تأمل في أن تصل هذه الخطابات إلى رابح، وأن يقبل توقيع معاهدة حماية معهم [1].

وتوضح هذه المساعي الفرنسية أن محاولات الاتصال برابح وعقد معاهدة حماية معه كانت من الأمور العاجلة التي توضح مدى التنافس بين الإنجليز والفرنسيين لكسب ود رابح فضل الله، كما نلاحظ أن الأسلوب نفسه اتبعته الدولتان عن طريق الاستعانة بنفوذ سيده القديم الزبير باشا رحمت.

ونلاحظ أيضا أن هذا التسابق المحموم بين الدولتين لم يسفر عن نتائج إيجابية بسبب إصرار رابح فضل الله، وإيمانه العميق بعدم التعاون مع المسيحيين وإعلانه حرب الجهاد ضدهم، وبسبب رفض رابح الامتثال لخطابات سيده الزبير باشا، وهو الأمر الذي يعني في النهاية أن إمبراطورية رابح قد صارت العقبة الأولى أمام توسعات الدولتين في المنطقة، كما أن رابحا يمثل مشكلة كبرى أمام لجان تحديد الحدود بين الممتلكات الأوروبية في غرب أفريقيا، فكان التفكير في القضاء عليه من أهم أسس الاستراتيجية الأوروبية بشكل عام، والاستراتيجية الفرنسية بشكل خاص. ومن هنا بدأ الصراع بين رابح والقوات الفرنسية وهو ما نوضحه بشكل مفصل.

أ-الصراع الفرنسي مع رابح فضل الله:

بعد أن احتل رابح باجرمى ودخل عاصمتها ماسينا طالب المسيو جيلان وزير المستعمرات الفرنسي باتخاذ الإجراءات اللازمة للدخول في حرب مع رابح فضل الله حتى يتقرر مصير المنطقة نهائيا. فأصدرت فرنسا أوامرها إلى إميل جنتيل (Emile Gentil)[1] بالذهاب فورا إلى نهر شارى لمساعدة السلطان جورانج سلطان باجرمى. وعلى الفور اتجه جنتيل في الخامس

عشر من فبراير عام 1897 إلى مدينة برازافيل في الكونغو الفرنسي، ثم اتجه نحو نهر شارى. هذا في الوقت الذي كان رابح قد احتل جبال تجباو الواقعة إلى الشرق من كونو التابعة لقبائل الباجرمى [2].

أرسل إميل جنتيل إلى السلطان جورانج يطلب منه عقد معاهدة صداقة وتحالف مع الفرنسيين، ورحب السلطان الذي ترتعد فرائصه من رابح بهذا العرض، ورحب باللقاء مع جنتيل في ماسينا العاصمة، وبالفعل وصل جنتيل إلى هناك عن طريق أحد روافد نهر شارى. وتم توقيع المعاهدة في 17 أكتوبر عام 1897.

طلب جنتيل من السلطان تزويده باثنين من الأدلاء للتوجه إلى بحيرة تشاد التي تبعد 250 كيلومترا عن ماسينا. وكان جنتيل يخطط لعقد معاهدات مع زعماء القبائل في الطريق، وفعلا عقد معاهدات مع الشيخ وبرى، والسلطان جقرة، ثم عاد إلى فرنسا بعد أن حقق هذا النصر العظيم [3].

وعندما علم رابح بذلك الأمر قام بهجوم جديد لاحتلال ماسينا، وألقى القبض على الزعماء الذين وقعوا المعاهدات الدفاعية مع إميل جنتيل، وأخذهم إلى دكوة أسرى بعد أن أدانهم بالتآمر ضده.

وتقدم رابح بقواته نحو القوات الفرنسية الموجودة في تلال تجباو بقيادة القائد بريتونيه الذي خلف إميل جنتيل عند سفره إلى فرنسا، وهاجمت القوات الإسلامية تلك الجموع الفرنسية وكبدتها خسائر فادحة [1].

أصيب القائد الفرنسي إصابات بالغة لدرجة أنه كان يقود المعارك ضد رجال رابح وهو طريح في صندوق من الحديد حتى لا يشعر أحد من رجاله بإصابته. وقام رابح بهجوم كاسح على دولة باجرمى حيث أثار الرعب في نفوس الباجرميين الذين ولوا الأدبار وفروا أمام عنف الهجوم الذي شنه رابح. وقام رجال رابح باحتلال المواقع الحصينة فوق قمم التلال، وبالتالي صارت القوات الفرنسية فريسة سهلة المنال أمام قواته، وانتهت المعركة بمصرع القائد الفرنسي بريتونيه، وكسب رابح جولة جديدة ضد الفرنسيين وحصل على كثير من مدافع الفرنسيين، وقد أبادت قوات رابح القوة الفرنسية في تلك المعركة التي أطلق عليها «مذبحة تجباو».

كان صدى هذه المعركة مدويا، وتلقى إميل جنتيل هذه الأخبار وقلبه يعتصر ألما على ما أصاب القوات الفرنسية على أيدى المسلمين في تلك

المذبحة، وصمم جنتيل على الانتقام لسمعة فرنسا وكرامتها التي لطخها جهاد رابح ضد الفرنسيين، وقرر الإسراع بالعودة إلى أفريقيا والانتقام من قوات رابح حتى يحفظ هيبة بلاده أمام شعب باجرمى الذي أصيب بحالة من الهلع والفزع، وتملكه اليأس والقنوط إثر هذه الهزيمة التي حلت بهم، بل أسرع عدد كبير من سكان باجرمى إلى الانضمام لقوات الموحدين وجيوش المسلمين، وشعروا أن الاحتماء في كنف المسيحيين لن يقودهم إلا إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. وباختصار كانت مذبحة تجباو لطمة كبرى للفرنسيين وأعوانهم، ونصرا كبيرا لجهاد المسلمين بقيادة رابح فضل الله[1].
حيث وصلها في الثلاثين من مارس، ومن هناك تقدم نحو نهر شاري عن طريق حريبنجى، وواصل جنتيل تقدمه حتى بلدة فورت أرشميولت التي تقع على مسافة مائة كيلومتر من كونو حيث كان يقيم رابح. وأصدر جنتيل في الوقت نفسه أوامر إلى الكابتن روبيلو (Robillot) في 13 أكتوبر 1899 بالتحرك نحو كونو للانتقام من رابح.

وكان رابح قد تحرك بقواته نحو الغرب، وتخلى عن رغبته في غزو خلافة سوكوتو حتى يتفرغ لصد بعثة جنتيل، وهكذا كان الصراع البريطاني الفرنسي من العوامل التي جعلت رابحا يصرف النظر عن غزو دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو[2].

وكانت خطة جنتيل أن تسير طوابير المشاة بجوار نهر شاري حتى تتمكن من أن تعسكر مع القوات التي تحملها السفن النهرية في مكان واحد لتأمين هجوم العدو. ولقد عانى جنتيل كثيرا من هذه التحركات خصوصا بعد أن انضم سكان باجرمي إلى قوات رابح فضل الله، وفي النهاية وصلت قوات جنتيل إلى مسافة تبعد قليلا عن معسكر رابح في تلال تجباو، وكانت القوات الفرنسية تتكون من ثلاث فرق بقيادة الكابتن روبيلو.

وفي 28 أكتوبر 1899 بدأت المعركة بين القوات الفرنسية وقوات رابح فضل الله بتبادل المدفعية وطلقات الرصاص بين المعسكرين، وأخذت فرقة الرماة في جيش رابح تتسلق الأشجار لضرب القوات الفرنسية الزاحفة. وقد نجحت هذه الفرقة في إسقاط عدد كبير من الفرنسيين ما بين قتلى وجرحى، وأمطر رابح جيش الفرنسيين بوابل من نيران الرماة الذين أجادوا فن التصويب على الهدف من بعيد، واضطر القائد الفرنسي إلى أن يدفع

بقوات المشاة، وذلك من أجل الالتحام المباشر برجال رابح في الخنادق.

وأمام موجة الهجوم الفرنسي بتلك الأعداد الكبيرة اضطر رجال رابح الموجودون خلف التلال إلى ترك مواقعهم والتوجه نحو المدينة، فتعقبهم الفرنسيون الذين أشعلوا النار في مدينة كونو التي تبعد 300 ميل من كوسيرى. واشتدت أعمال العنف والمقاومة، وصار القتال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل حتى اضطر رابح أن يقيم سورا من جذوع الأشجار وسط المدينة للتحصين ضد القوات الفرنسية. وتمكنت فرقة من الرماة في جيش رابح من شق طريقها إلى قلعة تشرف على مواقع الفرنسيين شمال المدينة، وبدأ التصويب من جديد على القوات الفرنسية، وأمام عنف الرماة وأسلحتهم الفتاكة اضطر إلى دفع قوات من الاحتياطي، الأمر الذي أدى إلى حدوث خسائر فادحة في الفرقتين اللتين دفع بهما إلى المعركة.

استمرت المعركة حوالي ثماني ساعات فقد فيها الجانبان خسائر فادحة في الطاقات البشرية والمادية، واستنزفت موارد رابح حيث مات عدد كبير من خيرة قواده مثل عثمان شيكو، والفقيه أحمد باكر. وعلى الطرف الآخر فقد الفرنسيون عددا من أكفأ الضباط وأشجعهم كما جرح القائد الفرنسي روبيلو جرحا خطيرا، وبلغت خسائر الفرنسيين حوالي 46 قتيلا و16 جريحا.

ونظرا للخسائر التي وقعت في قوات الجانبين فقد كان لابد من توقف القتال وانتهاء المعركة دون أن يحسم الموقف لصالح أي من الطرفين. وانسحب القائد الفرنسي عائدا بقواته إلى مدينة فورت أرشمبولت [1].

وقد انسحبت القوات الفرنسية من كونو بعد أن تركتها أثرا بعد عين حيث حولتها لكومة من الدمار والخراب وبالتالي لم يستطع رابح أن يتخذها قاعدة لعملياته الحربية فيما بعد، فتوجه إلى قواعده في الشمال لكي يستعد لجولة ثانية من المعارك مع الفرنسيين، واستقر رابح في دكوة وترك نهر شاري تحت السيطرة الفرنسية حيث تقدم الجنود الفرنسيون بسهولة نحو بحيرة تشاد لبدء مرحلة جديدة من الحرب ضد قوات رابح.

ب- حملات الفرنسيين ضد رابح:

بعد أن منيت فرنسا بهزائم متكررة أمام قوات المسلمين بقيادة رابح فضل الله، وخوفا من التطورات السريعة في المنطقة فقد أصدرت فرنسا

أوامرها إلى قواتها في السودان الأوسط بالتقدم نحو بحيرة تشاد والانضمام إلى حملة القائد إميل جنتيل، كما أصدرت فرنسا أوامر أخرى إلى حملة من بلاد الجزائر بقيادة الضابط الفرنسي لامي (Lamy) للمشاركة. وهكذا كثفت فرنسا جهودها وجمعت قواتها في حملات ثلاث ضد رابح وجيشه في أواخر أبريل عام1900[1].

وتحركت الحملة الأولى من السودان الأوسط تحت اسم الحملة الأفريقية ووصلت إلى بلدة ساي (Say) وكانت تحت قيادة ضابط يدعى جوستاف فوليه، لكن تم عزله وحل محله الكولونيل كلوب. ولكن ما أن سمع فوليه بنبأ عزله حتى استبعد كل الضباط المعادين له، وتقدم على رأس حملة لمواجهة القائد الجديد. ودارت معركة بين قوات الطرفين انتهت بمصرع كلوب لكن تمردت قوات فوليه عليه وقتلته، وانضمت إلى الملازم بالييه الذي استطاع القضاء على التمرد والعصيان وجمع صفوف القوات مرة أخرى تحت قيادة موحدة، وتقدمت الحملة بعد ذلك تحت قيادة الملازم جولاند (Joalland) تجاه بحيرة تشاد حتى وصل إلى حدود منطقة جولفي [1].

وكان معسكر جولاند على الضفة اليسرى لنهر شاري، وكانت مدينة جولفي تبعد فقط مائتي ياردة عن النهر. وكانت جولفي في ذلك الوقت مجرد قرية صغيرة يحيط بها سور من الطين اللين، وتحت حراسة قوات جيش رابح الذي رفض استقبال بعثة فرنسية جاءت للاتصال به قام بإعدام أعضائها في السوق العامة في العاصمة دكوة. وعندما حاول أحد الفرنسيين ويدعى فورو أخذ بعض المناظر لجولفي أطلقت قوات رابح النار عليه من أسوار القرية ودقت الطبول استعدادا للحرب، وعلى جناح السرعة بدأ الهجوم الفرنسي على جولفي تحت قيادة لامي، لكن قوات رابح كانت قد غادرت المنطقة في الليل وأخلت جولفي تماما [2].

وأرسل الكابتن جولاند إلى إميل جنتيل في قاعدته بفورت أرشمبولت أحد رجاله ليخبره بوصول القوة، وما أن علم جنتيل بذلك حتى تحرك في 13 مارس عام 1900 من قاعدته نحو الشمال للقاء به وبقوات الكابتن لامي التي كانت قد بلغت إقليم كانم شرقي بحيرة تشاد. وتم اللقاء بين جنتيل ولامي بالقرب من جولفي حيث كان يعسكر فضل الله بن رابح ومعه ألف رجل، وحاول لامي الاستيلاء على جولفي. لكن بعد الاشتباكات الأولى

ظهرت صعوبة تحقيق هذا بسهولة فقرر الكابتن لامي الزحف على كوسيري الواقعة إلى الجنوب منها واحتلالها حتى يقطع خطوط الاتصال بين فضل الله وبقية جيش المسلمين في قواعده في دكوة [3].

وأدى وجود جيشين صغيرين عدة أسابيع حول مدينة جولفي إلى استهلاك معظم موارد المنطقة، واضطر القائد لامي إلى التحرك بقواته جنوبا عبر المستنقعات التي تحد نهر شاري، ثم عبر النهر إلى مدينة مارا (Mara)، ثم اتجه بجنوده جنوبا. وفي الثاني من مارس شاهد مدينة كوسيري لكنه لم يقرر الهجوم عليها إلا بعد وصول قوات جنتيل ثم يعاود الهجوم عليها. لكن عندما أحس لامي أن التأخير في الهجوم ربما يعني الخوف وضعف القوة غير رأيه وقرر الهجوم على المدينة في صباح اليوم التالي [1].

كانت معركة كوسيري مذبحة مروعة لكلا الطرفين، حيث جمع لامي رجاله وأطلق النيران على المدينة الآمنة. وأمطر أسوارها بوابل من الرصاص حتى أحدث فجوة في سورها، وبعدها اندفع جنود لامي من السنغاليين والجزائريين نحو المدينة التي لم تكن قد استعدت بعد للهجوم الفرنسي الغاشم، وكان الموقف صعبا على قوات رابح التي لم تجد بدا مع عنف الهجوم إلا ترك الأسوار والخروج من المدينة وعبور النهر مع بعض من هرب من سكان المدينة، وكان عدد كبير من السكان قد اضطر تحت ضغط النيران إلى إلقاء أنفسهم في النهر، فمات عدد كبير، وغرقت جماعات كثيرة حاولت أن تتفادى النيران فسقطت في النهر غارقة. ودخل رجال لامي المدينة فأشعلوا النيران في المنازل في محاولة للبحث عن المواد الغذائية كالأرز والعسل والشعير. وقاوم سكان المدينة هذا الهجوم ولكن الحياة أصبحت صعبة في مدينة كوسيري. وفي 2 أبريل 1900 غادر فورو الحملة واتجه نحو الساحل تاركا القيادة للكابتن لامي وحده.

وبعد أن استولى لامي على مدينة كوسيري انسحب فضل الله بن رابح من جولفي واتجه إلى لوجون جنوبي كوسيري. وأقام فضل الله معسكرا في المناطق الريفية المجاورة للمدينة حتى يتربص بقوات الفرنسيين أثناء تحركاتها [2].

ونجحت خطة فضل الله بن رابح حيث صار العدو محاصرا من كل الجهات، وما أن سمع المجاهد رابح نفسه بهذه الأحداث السريعة وتلك

التطورات الخطيرة حتى غادر بجيشه العاصمة، واتجه نحو مدينة كوسيري حيث قوات الفرنسيين بقيادة لامي وفرض عليها الحصار. وكان هذا التكتيك الحربي في حد ذاته عملا رائعا وتخطيطا سليما من قائد حنكته السنون، وخاض معارك عديدة حتى بنى هذه الدولة الإسلامية بعد طرده من السودان. وكانت خطة القائد المجاهد رابح أن يتخلص من عدوه لامي في كوسيري قبل أن ينضم إليه جنتيل بقواته. لكن لم تتحقق آمال رابح في الحصار لأنه حاصر المدينة من ناحية البر فترك الفرصة لجنتيل لكي يصل إليها عن طريق النهر. وهكذا أحبطت خطة رابح التي لو أحكم تنفيذها لإبادة قوة لامي داخل كوسيري. ولأحدث للفرنسيين مزيدا من الخسائر. ولربما تغيرت صورة المنطقة، واستمر أمد المقاومة فترة أطول مما خطط لها رابح نفسه.

واصل جنتيل تقدمه حتى وصل إلى بلدة بوجومان في 15 أبريل عام 1900، هذا في الوقت الذي كان فيه رابح مشغولا بإنشاء خط دفاعي في شمال غرب المنطقة، وكان لامي قد أرسل تقريرا إلى جنتيل عن الحالة السيئة التي عليها رجاله، الأمر الذي جعل جنتيل يعجل بالاقتراب منه، ودخول كوسيري قبل أن يبدأ رابح الهجوم على المدينة. وكان جنتيل يكافح من أجل الوصول إلى كوسيري وسط جو صعب وظروف قاسية، وصعوبة المواصلات في هذه الأجزاء من القارة الأفريقية. وأخيرا تمكن جنتيل من الوصول إلى كوسيري قبل أن تنفذ مؤن وذخائر لامي، وصارت القوة الجديدة داخل مدينة كوسيري حوالي سبعمائة رجل [1].

وهكذا استطاع جنتيل أن يتسلل بسهولة نحو مدينة كوسيري، وانضم إلى قوات لامي، وتجمعت الحملات الفرنسية الثلاث في هذه المدينة في الوقت الذي كان رابح قد اختار موقعه في مكان مرتفع على أحد أجزاء نهر شاري وفي مكان حصين استعدادا لمعركة مصيرية مع القوات الفرنسية. وكان عليه أن يواجه هذا الحشد الفرنسي لحملات ثلاث بالإضافة إلى السلاطين المحليين وخصوصا السلطان عبد الرحمن جورانج الذي كان يساند الفرنسيين، ويجاهد مع المشتركين ضد المناضلين المسلمين، وكان عونا لهؤلاء المسيحيين في حروبهم ضد رابح فضل الله حيث زودهم بكل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ومعلومات. وكان هذا التحالف بين القوى المحلية وقوات الغزو الأوروبي من العوامل التي فتتت جهود المسلمين،

وناصرت أعداء الدين، ولولا هذا التحالف مع الفرنسيين لكان في مقدور رابح ورجاله أن يقاوموا ويصمدوا، ويناضلوا ويحققوا النصر، ولكن كانت هذه طبيعة السلاطين المحليين في كل السودان الغربي، يتنازلون عن سيادتهم وأراضيهم طوعا للأوروبيين وخوفا من زعماء المسلمين المحليين على أمل أن تساعدهم هذه القوى الأوروبية على الحفاظ على استقلالها، فإذا بها تنتهي بالضم والحماية الأوروبية بعد ضياع مناطق كثيرة كانت في أيدي الحكام الوطنيين. كل هذه الظروف جعلت مهمة جيش المسلمين تحت قيادة المناضل رابح فضل الله مهمة تتسم بالعصوية أمام جيش أوروبي حديث، وخلفه بعض الأعوان من السلاطين المحليين [1].

خامسا: المعركة الأخيرة ونهاية دولة رابح

بدأت المعركة الأخيرة بين رابح والفرنسيين عندما تحرك القائد الفرنسي لامي حتى صار على مقربة ميل واحد من معسكر رابح، ومعه القوات من الفرنسيين والسنغاليين وقوات سلطان باجرمي، وتسللت هذه القوات عبر الأعشاب والشجيرات. وفي الساعة الثامنة صباحا من يوم 22 أبريل عام 1900 عسكرت القوات الفرنسية على حافة المنطقة المكشوفة انتظارا لإشارة بدء الهجوم على قوات رابح، وكانت قوات لامي قد التقت ببعض قوات رابح من الرجال الذين كانوا يقطعون الحشائش الخضراء لتغذية خيولهم. وأطلقت قوات الفرنسيين النار عليها فلاذت بالفرار إلى أسوار المدينة. وكان هذا إيذانا ببدء المعركة المصيرية حيث رد رابح على فرقة الفرنسيين بتبادل إطلاق النيران على خطوط المواجهة مما جعل الفرنسيين يكثفون من نشاطهم ويتقدمون نحو خطوط القائد رابح.

وفي الساعة العاشرة من اليوم نفسه أصدر لامي الأوامر لرجاله بإطلاق النار على قلعة رابح، ولما خرجت القوات الفرنسية إلى المناطق المكشوفة أمطرها رجال رابح بوابل من الطلقات التي أحدثت خسائر فادحة في القوات الفرنسية مما اضطر لامي إلى الاستعانة بجيش الاحتياطي الذي صدرت إليه الأوامر بالتقدم لتأييد بقية الفرق العسكرية [1].

وصمدت القوات الإسلامية في تلك المواجهة، ونجحت في تحطيم الموجة الأولى من الهجوم الفرنسي، وساد جو المعركة الهدوء النسبي إلا من بعض

الطلقات التي كانت تنطلق بين الحين والحين. لكن الفرنسيين عاودوا الهجوم حتى استطاعوا فتح ثغرة في خطوط دفاع رابح، واندفعوا من خلالها نحو أسوار المدينة، واشتبكوا مع المدافعين في مذبحة مروعة استخدم فيها المدافعون السلاح الأبيض، وقاوم المسلمون هذه الهجمة الصليبية، واضطر رابح تحت ضغط الهجوم إلى الانسحاب بقواته خارج الحصن الذي دخله الفرنسيون بقيادة الكابتن لامي، ووجد الفرنسيون جثث القتلى من الشهداء في كل مكان، وكان المصابون يمسكون بأسلحتهم ويطلقون النار على الفرنسيين حتى النطق بالشهادة في سبيل الله، وكانت الخيول تتساقط في الشوارع بعد جولاتها ضد الفرنسيين، وازداد الفرنسيون شراسة، مع عنف المقاومة، حتى اضطروا إلى إشعال النيران في الأكواخ. فحولوا المدينة إلى كتلة ملتهبة من النيران، واندفع رجال الطرق الصوفية من المسلمين نحو الفرنسيين القادمين، وكانت معارك السلاح الأبيض والتشابك بالأيدي، والمقاومة في كل شارع ومنزل منظرا ترتعد له القلوب، حيث واجه المؤمنون الجموع الفرنسية بشجاعة وإقدام. ورغم عدم تكافؤ القوتين إلا أن إيمان الرجال بقضيتهم جعلهم يفضلون الاستشهاد في سبيل الله على الاستسلام لقواد المشتركين فكانوا جند الله البواسل الذين كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في معداتهم وأرواحهم، مما جعل الفرنسيين يزدادون تنكيلا بقرى المسلمين الآمنة. واستطاع الفرنسيون أسر عدد من رجال رابح بينما حاول مائتان من رجال الطرق الصوفية الاقتراب من البوابة الرئيسة لكن الفرنسيين هاجموهم وسقط عدد منهم ما بين قتيل وجريح، فكان منظرا بطوليا رائعا لجند الإسلام.

اعتقد الفرنسيون أن رابحا قد انسحب من ميدان القتال تاركا هذا القدر من الخسائر، وعلى أمل ألا يعاود الكرة على الفرنسيين الذين اعتقدوا أن المنطقة قد دانت لهم، لكن المجاهد المسلم بالرغم مما أحاط بقواته، وبالرغم من سقوط مدن كاملة تحت السيطرة الفرنسية، إلا أنه لم يفقد الثقة بالله، ورفض الاستسلام لأعداء الإسلام، فأعاد تنظيم ما بقي من قواته، وعاود الهجوم على الحصن الذي احتله الفرنسيون في محاولة لاسترداده من الأعداء وبالطبع حدث اشتباك، ودارت معركة أشد ضراوة من المعركة السابقة، ولم يتوقف رابح عن القتال إلى أن أصاب القائد

الفرنسي لامي الذي قاد الفرنسيين ضد هذه المدينة الإسلامية، وألحق بها من الأضرار ما لا يصدقه عقل، فقتل الأطفال والشيوخ والنساء، وأحرق المدينة على سكانها وأجبر بعضهم على الهروب من قبل، وإلقاء أنفسهم في النهر. لقد أصاب رابح هذا القائد الفرنسي بطلقة في صدره أردته قتيلا جزاء بما اقترفه من أخطاء ضد المسلمين وعساكر الموحدين.

لقد أرهقت هذه الاشتباكات قوات رابح الذي ظل صامدا ومقاوما حتى النهاية. وبعد أن نفدت ذخيرته، وقل عتاده، ومات عدد كبير من قواده جاءت نهايته المحتومة بعد هذه السلسلة الطويلة من الصراع مع الفرنسيين ومن حالفهم من السكان المحليين، ففي أثناء معاركه مع العدو، وبعد أن انتقم من القائد الفرنسي لامي الفرنسي أصيب هو الآخر بجرح مميت فلم يستطع مواصلة القتال، وارتمى على الأرض بين جثث الشهداء من رجال الطرق الصوفية في يوم 12 أبريل عام 1900 [1].

وفي الوقت الذي كان كل من رابح ولامي يلفظان أنفاسهما الأخيرة واصل جنود الفرقة الأفريقية التابعة للفرنسيين القتال خارج الأسوار مع قوات رابح التي بدأ نظامها يختل تماما، وأطلق أحد الجنود طلقاته على كل الجرحى فأصابت إحداها المجاهد رابح فضل الله الذي أغمض عينيه إلى الأبد بعد أن أدى واجبا بطوليا يستحق أن يسجله التاريخ ضد قوات العدو الفرنسي التي كرست جهودها للقضاء على هذا المجاهد ونضاله، والذي لقن الفرنسيين دروسا في الإقدام والجهاد والنضال. ولم يجعل طريق تقدمهم مفروشا بالورود كما يظنون، بل كبدهم من الخسائر ما لا يحتملون، وجعلهم يكثفون الجهود، ويزيدون من عدد الجنود بقصد القضاء على عدوهم اللدود.

انتشر خبر وفاة هذا الزعيم بسرعة البرق، ولما تطايرت الأنباء إلى مسامع القائد إميل جنتيل لم يصدق في البداية، وطلب إحضار جثة رابح حتى يتأكد بنفسه من الخبر، وبأنه قد قتل، ولما شاهد الجثة وعرف أنها لرابح انحنى هذا القائد الفرنسي إعجابا وخشوعا أمام الرأس التي دوخت الفرنسيين فترة من الزمان، واعترف جنتيل بأنه كان يود أن يمسك رابحا حيا حتى يحميه من الموت لأنه يكن لهذا البطل كل احترام، ولأن هذا الرجل واصل فتوحاته وانتصاراته طويلا وهو يقود الآلاف من الرجال الذين ملأوا

أواسط أفريقيا جرأة وشجاعة[1].

وهناك رواية أخرى بأن رابحا عندما جرح في المعركة مع القائد لامي، نقله أتباعه بعيدا عن مجال المطاردة، ووجده أحد السنغاليين ملقى على الأرض فأطلق النار على رأسه، ولما عادت قوة الفرقة الأفريقية وجدت أن جنتيل قد قرر مكافأة لمن يحصل على رأس رابح فضل الله، فعاد هذا الشخص السنغالي إلى الجثة حيث قطع الرأس وحملها إلى لامي الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فسأل الجندي عن أرقام الخسائر فكان الرد حوالي 28 قتيلا وحوالي 75 جريحا، وعرف لامي قبل وفاته أن رابحا قد قتل، ولكنه لم يصدق إلا بعد أن شاهد الرأس، ومات لامي في معركة كوسيري التي أقامت فرنسا قلعة بها أطلق عليها فورت (قلعة) لامي، والتي تحولت بعد ذلك إلى مدينة نجامينا [1].

وهكذا سقطت مملكة رابح بعد فترة مليئة من الأحداث استمرت سبع سنوات من 9 مايو 1893 حتى 22 أبريل 1900، وبعد استشهاد هذا الزعيم المسلم وهو يدافع عن ديار الإسلام، ووصلت أخبار الفجيعة إلى ابنه فضل الله ابن رابح الذي كان موجودا في لوجون وهناك انضمت إليه بقايا جيش والده بعد معركة كوسيري. وخشي فضل الله من الاشتباك مع الفرنسيين قبل أن يستعيد بناء قواته، فقرر الانسحاب من لوجون والاتجاه إلى العاصمة دكوة حتى ينضم إلى أخيه محمد تيابي الذي كان قد أصيب في معركة تجباو.

بعد القضاء على رابح زحف الفرنسيون على لوجون فاستولوا عليها، واستمروا في زحفهم نحو العاصمة دكوة حيث فضل الله وقواته. ولما اقترب الفرنسيون من العاصمة انسحب منها فضل الله ورجاله، ودخلها الفرنسيون دون قتال، واقتحمت القوات الفرنسية سراى رابح بدكوة حيث اتخذتها مقرا للقيادة، لكن أحد الفدائيين نجح في التسلل إلى الدهليز الذي كان رابح يحتفظ فيه بالأسلحة والذخائر، وأشعل فيه النيران التي شبت في المبنى، والتهمت كل الأشياء النفيسة، وتحول القصر إلى حطام وأنقاض [2].

أحس فضل الله أن الفرنسيين عازمون على القضاء عليه وعلى إمبراطورية والده، في الوقت الذي يحاول فيه إعادة بناء جيش قارب على الفناء، وفي وقت فقد فيه كل القواد الأكفاء، وشعر فضل الله أن معركته مع

الفرنسيين لن تعود عليه إلا بالخسران المبين، ولم يعد عنده من السلاح ما يكفيه للقاء الفرنسيين، فبدأ دبلوماسية الحوار مع البريطانيين لعله يستطيع أن يجد فيهم معينا له، خصوصا وأن الصراع بين الدولتين على غرب أفريقيا قد بلغ أشده. فراح يتصل بالبريطانيين، وأرسل رسولا إليهم التقى ببعض البريطانيين عند نهر جوندولا ومعه الهدايا من الخيول والماشية، وأعرب فضل الله عن رغبته في فتح صفحة من الود والإخاء مع البريطانيين واستعداده للقاء بهم والترحيب بوفودهم إليه [1].

وبدأت سلسلة من المراسلات بين فضل الله والبريطانيين. ففي 26 مايو عام 1901 وصل خطاب إلى المستر هيبوياي من مدينة جوني (Gwoni)، وفيه يعتبر فضل الله نفسه صديقا للإنجليز، وطلب منه سرعة الرد حيث يعتزم التوجه إلى فيكا لأن جوني لا طعام فيها ولا شراب ولا قمح يكفي قواته [2].

ولقد أحدثت هذه المراسلات رد فعل عنيف لدى البريطانيين حيث كتب اللورد لوجارد خطابا إلى وزارة المستعمرات في عام 1901 يفيد بضرورة احتلال برنو فورا لوقف التوسع الفرنسي بعد هزيمة رابح، ولوقف المؤامرات الفرنسية التي حطمت كيان البريطانيين في المنطقة خصوصا وأن فضل الله بن رابح لا يزال قويا ولديه عدد من الرجال الأقوياء. وطالب لوجارد بتعيين فضل الله أميرا على برنو على أن تحميه قوة من حدود غرب أفريقيا. ويشير لوجارد في هذا الصدد إلى أن تقارير السيد والاس وكيله في المنطقة تؤكد أن فضل الله قد طرد بقايا الفرنسيين، وهاجم دكوة ونجالا باسم البريطانيين، وأنه أخذ من هناك ثلاثة آلاف بقرة مما جعل الفرنسيين يتعقبونه في المناطق البريطانية، وفي نهاية خطابه أفاد لوجارد أنه سيذهب بنفسه إلى ايبي (Ibi) ويحكم على الطبيعة ما يجب القيام به[3].

واهتمت الحكومة البريطانية بمقترحات لوجارد والرسائل العاجلة. ففي برقية إلى وزارة الخارجية في 15 أغسطس عام 1901 أفادت بأن فضل الله قد اصطحب معه حوالي ألفين من الأهالي المسلحين، وأنه غير آمن في مدينة دكوة بسبب تضييق الفرنسيين الخناق عليه، وأنه يرغب في أن يصاحبه ضابط بريطاني حتى تعرف برنو أنه قد صار تحت الحماية البريطانية، وأن فضل الله على استعداد لأن يحكم هذه المناطق تحت إشراف المقيم

البريطاني، وطالبت البرقية بالتحرك سريعا قبل أن تسقط برنو تحت نفوذ الفرنسيين [1].

وأرسل فضل الله خطابا آخر إلى البريطانيين تسلمه السيد والاس في 12 أكتوبر عام 1901 أفاد فيه بأنه يعتمد على البريطانيين، ويرجو أن يعين محل والده الذي رحل عن هذا العالم، وأنه سيظل مخلصا للبريطانيين طالما بقي على قيد الحياة [2].

واستجابت الحكومة البريطانية لطلب فضل الله حيث أرسل السيد أنتروبس خطابا إلى لوجارد لإصدار قرار الاعتراف بفضل الله أميرا على برنو في 30 أكتوبر عام 1901، وذلك بناء على موافقة مستر تشامبرلين الذي رأى الاعتراف به أميرا على برونو لأن هذا الرجل عدو للفرنسيين بشرط الالتزام بمقاومة تجارة الرقيق، وتنمية التجارة وفتح الطرق التجارية وتطبيق العدالة في المنطقة مع احترام الحدود بين الفرنسيين والبريطانيين والألمان، وأن يقبل المقيم البريطاني ونصائحه. وفي نهاية الخطاب طلبت الحكومة من لوجارد أن يراعي سلوكه وتصرفاته [3].

وبينما كانت الأمور تسير على قدم وساق، والمشاورات مستمرة بشأن الاستجابة لمطالب فضل الله، أدرك الفرنسيون أن علاقات فضل الله بالبريطانيين سوف تقوض جهودهم من أجل السيطرة على إمبراطورية رابح. فقام الفرنسيون بتعقب فضل الله حتى بلدة ديجامبا (Deguemba)، ودارت معركة عنيف أسفرت عن سقوط عدد كبير من الضحايا، وأسر الفرنسيون عددا من جنود فضل الله. ورغم كل هذا لم تلن عزيمة هذا المجاهد الذي واصل الكفاح ضد الفرنسيين حيث اتجه جنوبا حتى بلدة برجامة، وهناك اجتمع حوله عدد كبير من الأعوان والمجاهدين الذين ناصروه، ووقفوا بجانبه إلى أن حقق عدة انتصارات على الفرنسيين [1].

خشيت فرنسا من أن تؤدي هذه الانتصارات إلى ازدياد نفوذ فضل الله وإحياء سيرة والده، والانضمام إلى البريطانيين، فعينت القائد ديستانف (Destanave) للقضاء على فضل الله. وفعلا وجه هذا القائد حملة كبيرة ضد الزعيم المسلم وتم اللقاء بين القوتين في معركة قرب دلتا نهر شاري وسقط فضل الله صريعا على أرض المعركة في أكتوبر عام 1901 [2].

وفوجئ البريطانيون باستشهاد الرجل الذي طالما طلب منهم الدعم

والمساعدة للوقوف أمام الفرنسيين، وألح في استعجال إرسال المساعدات له، ولكن تردد البريطانيون حتى جاء خبر مصرع الرجل الذي عرض عليهم خدماته. وبعد مصرع فضل الله أرسل المندوب السامي لنيجيريا الشمالية برقية يوم 11 نوفمبر عام 1901 إلى مستر تشامبرلين أفاد فيها أن فضل الله قد تعرض للهزيمة أمام الفرنسيين في جوجبا (Gujba) وأنه قد لقي مصرعه [3]. وتأكد استشهاد هذا الزعيم في تقرير آخر في الخامس عشر من نوفمبر حيث أفاد بهزيمته في جوجبا، وأن القوة الفرنسية عادت إلى كوسيري بعد أن أسرت عددا من أتباع فضل الله، كما طالبت البرقية بإرسال قوات محلية في الحال إلى برنو للحفاظ على المصالح البريطانية بعد استشهاد فضل الله [4].

وهكذا طويت صفحة جديدة من صراع المسلمين ضد القوى الأوروبية، رفض فيها هذا المجاهد الإسلامي أن يستسلم للفرنسيين، وناضل حتى النهاية وآثر الاستشهاد في سبيل رفع كلمة الله، وبعد أن نفدت كل وسائله وضاعت كل ممتلكاته التي ضمها بعد كفاح طويل ضد زعامات محلية قصيرة النظر لم تعرف كيف تفرق بين العدو والصديق، وارتمت في أحضان أعداء الدين خوفا من زعامة المسلمين، فكان جزاؤها ضياع كل ما ملكت للأوروبيين. ولو عرفت هذه الزعامات المحلية أسلوب الأوروبيين، وتكاتفت مع بني جنسها من الأفارقة لتكونت جبهة قوية قادرة على الصمود والنضال، ولما وجد الفرنسيون مكانا لهم في تلك الأرض الأفريقية، وهو عامل هام كان جديرا بتغيير سير المعارك، وتحقيق آمال الأفارقة في الدفاع عن كيانهم، ولو حدث هذا التكاتف، ووحّد الأفارقة جهودهم ضد الغزو الأوروبي، وساروا خلف زعاماتهم الإسلامية التي تدافع عن العقيدة التي تتعرض لعدوان أوروبي صليبي-لو حدث كل هذا-لغير رابح وابنه فضل الله مستقبل المنطقة السياسي.

لقد استشهد رابح وهو يخوض معارك النضال ضد الأوروبيين. وكان استشهاده عظيما كما كانت حياته عظيمة. وكان جهاده وكفاحه الطويل والمشرف مثار إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، وسجل هذا الإعجاب عدوه اللدود إميل جنتيل الذي انحنى أمام الرأس بعد انتزاعها، وكان تقديره لهذه الرأس التي دوخت الفرنسيين وقادت عساكر المجاهدين سنين طويلة

عظيما. وامتدت روح الجهاد إلى ابنه فضل الله الذي لم يتأثر باستشهاد أعز الناس إليه بل واصل مسيرة الجهاد. ورغم ضياع إمبراطورية كبرى، ورغم عنف الغزو الفرنسي وبشاعته واستخدام أشد وسائل القمع والاضطهاد إلا أن فضل الله جمع ما بقى من المناضلين وأعاد الكرة على الكافرين، وبدأ سلسلة من المراسلات مع البريطانيين حتى يحفظ المنطقة من غزو الفرنسيين. كان فضل الله يلح على طلب المساعدات حتى يواصل الكفاح، ويقضي على تقدم الفرنسيين الذين أطبقوا عليه من كل جانب. فكان الكفاح مشرفا وكان الصمود عظيما وكانت النهاية شهادة في سبيل الله والدين.

لقد استطاع رابح فضل الله خلال سبع سنوات فقط أن يتحكم في منطقة واسعة من غرب أفريقيا بعد أن خرج من «ديم الزبير» مجرد جندي في جيش الزبير باشا رحمت، ورفض طاعة ابنه سليمان الذي ضاع وسط المؤامرات. وتحرك رابح غربا حتى صار سيد نفسه وزعيما لأنصاره ومؤيديه، بل مسؤولا عن مصير منطقة واسعة دانت له بقوة السلاح والنار، وبسط عليها لواء الأمن والأمان. وجعل الدين الإسلامي وشريعته الغراء منهاجا لكل الموحدين. استقرت الحياة رغم عبث العابثين وتآمر المتآمرين، وتحالف حكام وسلاطين محليين مع الأوروبيين من الفرنسيين. طبق الشريعة وأحيا السنة في فترة قليلة، وأمات البدعة وبني جيشا قويا، وصار إماما للمجاهدين ضد الوثنيين. لكن ساء حظه عندما تصادف قيام دولته مع خطة أوروبية لاقتسام القارة الأفريقية.

فكان الصراع المحموم على أراضيه وكان التكالب بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا على إمبراطورية شابة فتية عرفت بداية الاستقرار وشبت عن الطوق لتنشر مبادئ الدين، لكن الفرنسيين وقفوا له بالمرصاد، فضاعت جهود المناضلين في صراع لم يكن في الحسبان، وانشغل القواد في حرب ضد الحكام الذين تحالفوا مع الفرنسيين وضد حملات مكثفة جمعتها فرنسا من كل صوب، ووجهتها نحو القضاء على تلك الإمبراطورية الإسلامية، فكان جهاد رابح وابنه فضل الله نبراسا يحتذى وصورة من صور جهاد المسلمين ضد الأوروبيين، تلك الصورة التي طمستها المؤلفات الأوروبية وأشارت إليها في عبارات ثانوية على أنها حركات تمرد انتهت مع أول

هجمة أوروبية. لكن تاريخ الرجل سجلته وثائق عديدة ومعارك مدونة في تقارير رسمية مازالت محفوظة في دور الوثائق الأوروبية، تنبض بروح الجهاد وحركات المقاومة الإسلامية التي قادها زعماء أفارقة ضد الهجمة الأوروبية الشرسة على القارة الأفريقية في أواخر القرن التاسع عشر.

تلك صورة من صور الجهاد أردنا فقط-بقدر ما أتيح لنا من وثائق-أن نلقي بها ضوءا على جهاد المسلمين، ذلك الجهاد الذي تجاهله الأوروبيون وركزوا على بطولات أبنائهم فحفلت مؤلفاتهم بالعديد من الأكاذيب والافتراءات على زعماء الجهاد الذين دافعوا عن دينهم، بل وصل بهم الأمر إلى وصفهم بالجنون وادعاءات المهدية. لكن التاريخ سيظل يذكر جهاد هؤلاء الرجال الذين حافظوا على الإسلام في القارة الأفريقية حتى يومنا هذا.

وهناك شهادة من البريطانيين عن رابح نوردها هنا لنؤكد على عظمة جهاد هذا الرجل، حيث أشار تقرير المخابرات البريطانية عن رابح إلى أنه رجل يتعصب لدينه، له طباع مستقلة، ويمتلك الشجاعة والحكمة، وله من المواهب العسكرية ما جعل منه رجلا عظيما، وحقق لنفسه شهرة كبيرة في جزء من حوض تشاد يشبه إلى حد كبير تلك السمعة التي حظي بها زميل مسلم آخر يدعى ساموري في أفريقيا الغربية. لقد كان رابح مغامرا خطيرا لا يهاب أحدا، ولذا فقد خشي بأسه وجرأته عدد كبير من زعماء المسلمين في المنطقة، حيث حدد سلطان واداي والشيخ السنوسي الاتصال به أو التعامل معه. كما أن سلطان برنو قد عانى الكثير على يديه، وكان يتمنى الثورة ضده لطرده من أرضه، وحتى دولة سوكوتو الإسلامية أوقفت التعامل معه لخطورته، كما أن دولة باجرمي التي ظلت تدلع له جزية حتى عام 1890 لم تتوقف عن الثورة ضده [1].

وكان اتساع الدولة مع عدم التركيز على منطقة معينة فترة طويلة سببا في خوف الزعماء المحليين الذين وجدوا فيه مغامرا يثير الرعب في نفوس الناس. ولم تقف طموحاته عند مكان معين، وكان ذلك سببا في فقدان الثقة به ورفض الزعماء التعامل معه، بل فضلوا التحالف مع قوى الأوروبيين. ولولا هذه الروح الفدائية المغامرة لاستطاع رابح أن يكون جبهة إسلامية، وأن يتحالف مع بقية الزعماء بشكل دبلوماسي وبطريقة تعطيهم الأمان.

ولو حدث ذلك لتغيرت استراتيجيات الدفاع، ولكان عبء النضال الذي واجهه رابح أقل كثيرا مما حدث، ولطال أمد النضال فترة أطول. لكن رغم كل هذا فإن الدور الذي قام به رابح كان مشرفا وجهاده كان نموذجا، واستشهاده في سبيل الإسلام كان عملا بطوليا يحتذى.